

الفصل الثاني والعشرون

عودة إلى جهينة

ولعل آخر مرة سمع بها عن جهينة بهذا الاسم ما ذكره الرحالة البريطاني جيمس بروس الذي قام برحلته المعروفة لاكتشاف منابع النيل بين سنة ١٧٦٨ و ١٧٧٣م، وزار مملكة سنار أو المملكة الزرقاء أو مملكة الفونج التي قامت في السودان على أنقاض مملكة علوة النوبة المسيحية سنة ١٥٠٤م وقد قطع بروس الحدود بين الحبشة والسودان قادما من غندار بالحبشة ، وعبر الحدود الفونجية إلى الأراضي السودانية . وفي طريقه من قرية رأس الفيل محاذيا نهر عطبرة متجها إلى سنار التقى بجماعات وأفراد من قبيلة جهينة .

ويتحدث بروس عنهم بأنهم عرب يسكنون في الحدود بين الحبشة ومملكة سنار ، وأنهم من رعايا السلطان السناري ، وانهم كانوا عضدا لهذه المملكة في حروبها مع الحبشة ، وأنه على حد قول بروس لما هزم ملك الفونج وتراجعت جيوشه أخذ بعض أفراد جهينة بعض السبايا الحبشيات وذهبوا بهن إلى سنار .^١

ويقارن بروس بين جهينة وقبيلة الضباينة دون أن يذكر أن هؤلاء الأخيرين في الأصل بطن من بطون جهينة^٢ التي انبثقت منها هذه القبيلة

^١ المعروف أن سلطنة سنار لم تهزم قط في معاركها ضد الغزوات الحبشية .

^٢ يقول الضباينة بأنهم من جهينة ، ولكن ربما كانوا من ذبيان العدنانية . راجع الحديث عن الضباينة

وغيرها في الأراضي السودانية . وعضى بروس قائلاً إن العلاقات بين جهينة والضباينة لم تكن على ما يرام ، وأن الضباينة كانوا أهل بدوأة ولهم اليد العليا على جهينة ، وأنهم كانوا يغزون قرى جهينة ، ويحرقون حقولهم الزراعية ، ويحصدون غلتها عنوة ، ويستولون على ما في مظاميرهم من ذرة . ويبدو أن فكرة بروس عن قوة جهينة كانت سيئة للغاية ، ولعل السبب في ذلك تهجم أحد العرب عليه وعلى أحد تابعيه ، وادعاء ذلك العربي أنه شيخ من شيوخ جهينة ، إذ تصدى له أحد أتباع بروس ، وكان تركيا وقال له متحدياً إن كنت أنت جهنيا فأنا ضبياني ، ثم هجم على الأعرابي ، وطرحه أرضاً ، وسلبه سيفه ، مما دعا الأعرابي في آخر الأمر للادعاء بأنه إنما كان يمزح معهم . وعلى العموم فإن بروس كان واضحاً مما كتب أنه كان يحمل في نفسه كثيراً من الضغن للمسلمين ، وأنه كان يظهر من مثالبهم ما قاده إليه هواه ولذلك فقد وجدته متحاملاً على كل ما هو عربي مسلم .

وعندما كان بروس يسير في طريقه إلى سنار ، وصل إلى مقر الشيخ فضيل شيخ إقليم نهر عطبرة ، وهناك عالج فضيل من داء في بطنه كان يشكو منه ، وكان فضيل يريد أن يتقياً دون أن يجد لذلك سبيلاً ، فأعطاه بروس دواء أسعفه به ، ثم طلب منه فضيل أن يفحص اثنتين من زوجاته لإعطائهن نفس الدواء . ويحدثنا بروس بأنه وجد إحدى زوجات فضيل امرأة في منتصف العمر ، وكان لها بنت في الخامسة عشر من عمرها . وكانت هذه الفتاة بحق رائعة الجمال ، قمحية اللون - أي أنها لم تكن سوداء البشرة - شعرها لم يكن فلفلاً مجمداً ، بل كان غزيراً طويلاً مرسلاً ، أما قوامها فقد قال بأنه يصلح لأن يكون نموذجاً أمام فنان ليرسمه بسبب

جماله الأخاذ . وكان ظاهرا من حديث بروس أن هذه الفتاة كانت تتمتع بجاذبية لم يشهدها في غيرها طوال رحلته . وتحدث عن لبسها وأهم ما فيه أنها كانت تغطي رأسها من قمته إلى أخمص قدميها ، ولكنه رأى وجهها فقط عندما كانت تداعبها إحدى جواربيها فنزعت عنها طرحتها . وكان اسم هذه الفتاة عائشة .^٣ ويذكر بروس أنه " قد فوجئ بكل هذا الجمال العظيم " عندما رآها إذ كانت تقاطعها بلا أخطاء ، كما كانت دهشته تلك ، وإعجابه ظاهرا لكل أولئك النسوة المرضى منهن والصحاح اللاني كن حوله .

ويبدو أن عائشة كانت ذكية جريئة إذ أنها أرادت أن تعرف شيئا عن نساء إنجلترا، فقالت له بأنه لن يرى في بنات نهر عطبرة جمالا بعد أن رأى جمال الحبشيات ، أما نساء أوربا فهن بلا شك يبضاوات البشرة وأنهن أجمل نساء العالم قاطبة .

وتمضى المداعبة بين بروس ونساء الشيخ فضيل وعائشة ، فتقول له والدتها بأنه لو كانت عائشة مريضة اليوم لما اهتمت بأى منا . ويؤمن بروس على رأيها هذا بأنه لو كانت عائشة بالفعل مريضة لوجد نفسه عليلا ولأخفق في علاج أى منهن .

وقد قابل بروس بالفعل أحد شيوخ قبيلة جهينة بالقرب من عاصمتهم في جبل أسرف والتي كانت هدفا تغير عليه قبيلة الضباينة . وذكر بأنه في ١٣ إبريل جاء أعرابي من جهينة وهو يحمل أخبارا مفادها أن حاكم نارا الحبشى قد استولى على قافلة ملح . وكان شيخ جهينة هذا رجلا

^٣ جيمس بروس : ص ١١٢-١١٣ . مجلده

متقدما في السن له وقاره واحترامه ، وكان معه عشرة أو اثنا عشر رجلا من قبيلته جاءوا على ظهور الإبل للشيخ فضيل .

لم يذكر بروس شيئا كثيرا عن شيخ جهينة أو رجاله ، ولم يعر وجودهم كبير اهتمام ربما لأنهم لم يكن لهم مقر كبير أو سلطة واسعة كتلك التي كانت لغيرهم . وربما كان رجال جهينة هؤلاء هم آخر من بقى من القبيلة باسمها التاريخي الذي رحلت به من الجزيرة العربية إذ أننا لا نصادفهم بعد ذلك في رحلته إلى سنار ، ثم إلى شندى حتى خروجه من الأراضي السودانية . وربما كانت هذه الجماعات الجهنية التي وصلت إلى تلك الأصقاع النائية هي البقية الباقية من الأصول الجهنية التي ظلت متمسكة باسمها والتي لم يعد لها خطورتها في الحرب والسلام كما كانت في عهد ابن خلدون في القرن الخامس عشر (٨٠٨هـ / ١٤٠٦م) .

هكذا نجد أن هذه الرحلة ربما كانت آخر الرحلات التي تصادفنا وفيها جهينة ، أما بعد ذلك فإننا نجد أبناء جهينة قد تفرقوا في البلاد أيدي سباً ، وأصبح لكل منهم قبيلة جديدة متماسكة الأطراف ولكنها ترجع في أصولها إلى جهينة التي أصبحت اسما حفظه التاريخ .

انتمت قبيلة الجعلين إلى هذه العترة العباسية الكريمة النسب^٤ . ومما تجدر الإشارة إليه أن السودانيين قاطبة منذ أن انتشرت القبائل العربية في

^٤ يقول الدكتور يوسف فضل (ص ١٤٥) يصعب إيجاد الدليل على أن زعم الجعلين بأنهم عباسيون لأنه لم يجد ذكر هجرة عباسية ، غير أنه لا يستبعد هجرة بعض العباسيين دون أن يذكر ذلك في المصادر . وهناك رواية لم يذكرها أحد من الجعلين بأن بعض العباسيين قد فروا من الفاطميين غير أن الأقرب إلى التصديق هو نزوح بعض أقرباء الخلفاء العباسيين الذين لجأوا إلى مصر في كنف المماليك قد وجدوا ملاذا أفضل بين قبائل جهينة ومن معها من عربان في السودان بين عطبرة وشلال السبلوقة

السودان قبل القرن السادس عشر الميلادى وخلاله وبعده لم يتهموا الجعليين فى نسبهم العباسي ، بل اعترفوا به وقبلوه . وحتى فى آخر أيام المهديّة عندما أعد الخليفة عبد الله بن محمد جيشه للدفاع عن السودان ضد القوات البريطانيّة ومن معها ، وضع المقاتلين الجعليين فى أحد أجنحة الجيش المتقدمة ، وقال لهم بأنه يفعل ذلك تيمنا بقرابتهم من النبي (ص) . وقد فسر بعض الناس تصرفه هذا على أنه كان يريد أن يقضى على الجعليين فى المعركة الفاصلة ضد قوات الجيش الغازى فى معركة كررى من ناحية ، ولكي لا يركنوا إلى الفرار من ناحية أخرى ، وهذا ما قاله كتاب المخابرات الإنجليزيّة الذين صحبوا الجيش الغازى . ولكن من يعرف الجعليين وكفاحهم الذى يستमितون فيه ، وتجنّبهم ما يسى إلى سمعتهم وتاريخهم يعرف أن الخليفة عبد الله إنما وضعهم فى المقدمة ليستमितوا وليستमित معهم من كان فى ذلك الجناح . وإضافة لذلك فإن الخليفة عبد الله وجيشه السودانيّ الباسل الذى جمع الجموع من الشرق والغرب ومن الشمال والجنوب لم يخرج ليواجه هزيمة ، ولكنه خرج وهو موقن من النصر وهو يهتف فى كل خطوة للأمام (الله اكبر ، الله أكبر) . فالجعليون هم خليط من المصاهرة الجهنيّة العباسية التى حدثت فى السودان فى أراضى الجعليين المعروفة الآن ، وهم الذين قاوموا جيش الأمير إسماعيل بن محمد على ، وقضوا على الأمير مع حراسه وجنوده إبان فتح محمد على باشا للسودان سنة ١٨٢٢ .

وعلى العموم فإنه لا يمكن أن يطعن فى هذا النسب العباسي أو أى نسب عربيّ فى السودان لأنه من الصعب على القبائل العربية الادعاء بنسب لا ينتمون إليه لأن بقية القبائل المهاجرة تعرف أصولهم وأنسابهم ، وقد يعيرونهم بسبب هذا الادعاء . ولذلك فليس هناك شك فى أن الأنساب

العربية التي ذكرتها القبائل عن نفسها كانت صحيحة إلى حد كبير ، وأنه كان معترفا بها لدى الجميع كما كانت الحال في الجزيرة العربية مع الأخذ في الاعتبار صلة الموالي والأحلاف التي كانت معروفة ومعترفا بها لدى العرب منذ الجاهلية .

وقد يتبادر إلى الأذهان أن لفظ العباسيين لا يطلق إلا على من كان من نسل العباس ، ولكن كما نعرف من تاريخ العرب والمسلمين فإن الأمويين والعباسيين والفاطميين والعثمانيين وغيرهم من أسر ملكية جاءت بعد ذلك إنما يمثلون حقبا لأسر حاكمة ، وأنه لا يعنى الرجوع بالنسب إلى أى من هؤلاء الذين تنتسب إليهم الرعية . وهكذا كان الأمر مع الجعليين وغيرهم من القبائل الأخرى التي ألحقت نسبها ببعض أشرف قريش أو العرب ، فإن هذا الانتساب يعود إلى الزعماء فقط . وقد فسر هذا الأمر الدكتور يوسف فضل حين تحدث عن انتساب القبائل البجاوية إلى العرب فقال بأنه لا يمكن تصديق مزاعم البجة التي تقول بأنهم عرب كما أنه لا يمكن تصديق سلسلة أنسابهم التي يدعونها ، ولكن بكل تأكيد فإن رؤساء قبائل البجة على الأقل هم من العرب إذ أنهم استولوا على ملك القبيلة عن طريق توريث ابن البنت ° ، أما بقية القبيلة فقد أصبحت تبعا لذلك عربية " . وهذا ما يستند عليه قولنا أنه ليس كل العباسيين من أولاد العباس ، وليس كل الأمويين من أولاد أمية ، وهكذا فإنما الناس على دين ملوكهم .

والمعروف أن كثيرا من القبائل العربية اختلطت بعامة البجة وبزعمائهم ، ورأينا كيف أن ربيعة ومضر وجهينة كانت قد كونت اتحادا مع

° يوسف فضل ، ص ١٣٨ .

البيعة بنسبة العشر تقريبا منذ أن صهرت ربيعة في البيعة بعد سنة ٢٤٠ هـ .
ولترك الآن الحديث عن القبائل البجاوية لنعود إليه في موضعه .

ومن تتبع أخبار الجعليين نجد أن اسمهم الذى اختاروه لأنفسهم ، أو اختارته لهم القبائل الأخرى هو اسم حديث لا يرجع إلى أية قبيلة عربية معروفة في الجزيرة العربية ، ولا يبدو أن هناك صلة بين الجعليين وبين قبيلة بنى جعل التى ذكرها ابن دقماق المتوفى سنة ٨٠٩ هـ / ١٤٠٦ م حين قال بأن هناك قبيلة عربية تعرف ببني جعل ، ويبدو وأنها شهدت الفتح إذ أن لها موضعا معروفا باسمهم فى الفسطاط ، وعد ابن دقماق موضعهم على أنه من الأماكن المهمة .^٦ والسبب فى استبعاد الصلة بين هؤلاء الجعليين وبني جعل هو انتماء الجعليين السودانيين إلى العباسيين والجهنيين .

أما إبراهيم جعل جد جعليّ السودان فإن الروايات تفيد بأنه كان يجمع الناس حوله من كل حذب و صوب . وكان رجلا كريما ينفق عن سعة . ولهذا فقد دانت له بطون جهينة وأحلافها من العربان ، والتفوا حول دياره ، وقد استطاع هذا الزعيم الجعلى أن يتزعم أراضي شاسعة على النيل تكثر فيها الزراعة كما أنها منتجة للأعلاف والمراعي . وكانت إقامة هؤلاء العرب إقامة توطين واستقرار وبناء للبيوت بالآجر الأخضر والأحمر فى المدن . أما الخيام فقد انتشرت فى الفضاء الشاسع المجاور لهذه المدن والقرى الحضرية . ومن هنا ظهرت كل من المتممة فى غرب النيل وشندي فى شرقه كعاصمتين للجعليين ، وازدهرت تجارة شندي خاصة ، وكان يؤمها التجار والقوافل القادمة من مصر من الشمال ، والقادمة من الحجاز والهند وما وراء

^٦ ابن دقماق : الانتصار لواسطة عقد الأمصار - بولاق ١٨٩٣ .

ذلك وما بينهما عبر ميناء سواكن ، كما كانت هناك تجارة وبضائع تصل من النيل الأبيض والنيل الأزرق ، ومن كردفان وكسلا أيضا .

ولم يشتهر الجعليون بشيء اشتهارهم بالمثل العليا التي وضعوها لأنفسهم والتزموا بالاتسام بها من حيث بز أقرانهم عند الشدائد ، فالمثل المعروف بين سائر السودانيين الذى يقول " الجعلى يقضى يومه خنق " يوضح قوة عزيمة الجعلى الذى يلزم نفسه بأصعب الأمور دون أن يشكو لأحد ولو انقضى ذلك اليوم وهو مخنوق . كذلك نجد السودانيين قاطبة يلزمون بعضهم بعضا بالصبر على الشدائد ، فتارة يقول الرجل لصاحبه " يا زول ، ما تجوعل " أى " أيها الرجل الهمام ، صبرا على الشدائد وكن جعليا " وتارة يقول لصاحبه وذلك حين يصيب الفزع صاحبه : " مالك ؟ ماك جعلى " .

أى " ماذا بك ، ألسنت جعليا تصبر على ما أنت فيه من شدة وكرب . " وهكذا أصبحت رجولة الجعلى وصبره على المكاره حافزا لكل السودانيين لكي يتسربلوا بلباس الصبر دون حدود . ومما لا شك فيه أن هذه الأسس الأخلاقية سادت فى السودان ، وأخذ يتحلى بها كل من كان جعليا وغير جعلى ، وأضحت الشيم الغالبة على معظم أهالي السودان إن لم يكن جلهم . وانتشرت بطون الجعليين على ضفاف النيل من عطيرة حتى شلال السبلوقة شمالي الخرطوم على بعد ثلاثين ميلا تقريبا . إلا أنهم فى جميع العهود كانوا يسافرون من مكان لآخر فى سائر أنحاء البلاد ، وأنشأوا أماكن وقرى لإقامتهم فى جهات عدة بالأراضي السودانية .

وقد اختلط الجعليون كغيرهم من القبائل العربية بسكان هذه المنطقة الأصليين ممن سبقوهم إليها ، وهم أبناء مملكة علوة الذين عرفوا باسم العنج . إلا أن هذا الاسم لم يعد يمثل قبيلة من الناس وكأنما اندثر أصحابه

تماما . واستطاع أبناء جهينة هؤلاء أن يجعلوا لغتهم العربية الدارجة تسيطر على كل لغة أخرى قديمة حتى لم يعد للغة القديمة أى أثر فى هذه المنطقة وأصبحت اللغة العربية العامية هى اللغة الوحيدة الموجودة فى تلك المنطقة والتي يتكلم بها سائر الناس ، وما ذلك إلا لارتباط اللغة العربية الفصحى التي انبثقت منها اللغة العامية بالقرآن الكريم .